

كتاب السيرة

للأستاذ أحمد الشاذلي
المدرس بكلية الآداب

— ١ —

ولما تجاوزتهم إلى جماعة من كتاب الفريجة الأعلام الذين رأوا في نبي المسلمين رجلاً عظيماً من رجال التاريخ خليفاً بالبحث في أسباب عظمته ، وما أتيج له من هذا الفوز الذي استأثر بالسلطان المدني والسياسي طوال القرون الوسطى ، إذ كان العالم الإسلامي يشغل التاريخ بأحداثه الكبرى ، ودوله المتعاقبة ، وآدابه النزرة حين كان الغرب يضطرب في ظلمات كثيفة ، وبحيا حياة خاملة .

ولسنا هنا بمرض الاستيعاب ، واستقصاء هؤلاء الذين كتبوا عن الرسول قديماً وحديثاً من المسلمين وسوام ، وحسبنا أن نمشي من ذلك لنصل منه إلى جماعة من المعاصرين الذين تناولوا السيرة بأساليب مختلفة ، لها قيمتها العلمية والفنية جميعاً .

— ٢ —

منذ ألف ابن إسحاق سيرته التي اختصرها ابن هشام في هذا الكتاب المنسوب إليه ، والناس يعدونها المرجع الأول لكل من يحاول تأريخ الرسول . وليس ذلك لأن جميع ما احتوته حق تاريخي خالص ، وموضع الثقة التي لا ينالها تحريج ، لا ، ولكن ذلك لأسبقيتها التاريخية في التدوين ، ولما احتوته من حقائق ثابتة في كثير من المواقف ، ولأنها روت أخبارها بهذه الروح التي كانت مسيطرة على المسلمين في القرون الأولى ، أي بوجهة نظرهم ، وطريقة تفسيرهم لحواشيها ... فكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل عند المتقدمين ، ونقطة الابتداء لكل من يحاول تأريخ النبي الكريم من المحدثين ، يرجع إليها محققاً أو مستهتماً . دع عنك بعد ذلك ما تراه فيها من شعر منحول ، وروايات مكذوبة ، وأخبار لم تصح ، لأن وزر ذلك لا يقع على ابن إسحاق وحده ، وإنما لهذه البيئة التي كان يعيش فيها الأثر الأول فيها وقع فيه من قصور ، فقد كان يحكي أخباراً جاهلية بعيدة ، ويقص أياماً نالها المبالغات والمصيبيات ، وينقل آثاراً مات أهلها ، واعتراها التحريف . على أن ابن هشام لم يقيد جميع ما كان لابن إسحاق من خبر بل حذف منه كثيراً وبخاصة ما كان متصلاً بالجاهلية الأولى ، منفصلاً عما يتصل بحياة الرسول اتصالاً مباشراً كما هو مذكور في المقدمة .

ثم جاء الواقدي وتلميذه ابن سعد في طبقاته ، وحاولا التحقيق والزيادة ، فظفرا منها بنصيب . وأصبح فن السيرة بعد

تحتل السيرة النبوية في تاريخ الأدب العربي مكانة لم يظفر بها موضوع آخر ، لهذه المكانة التي يشغلها صاحبها في تاريخ الأمة الإسلامية أولاً ، وفي التاريخ العام ثانياً ، فإن الرسول عليه السلام لم

يكن أديباً فقط له هذه الآثار القوية الخالدة من الأحاديث والخطب والرسائل ، وإنما كان قبل ذلك وبعدة ، رسولاً صاحب دعوة إصلاحية عامة تناولت الدين والنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وأثرت في الحضارة العامة لمن اعتنقوها طائعين أو جانبوها كافرين ، واستطاعت أن تستوقف التاريخ أو تلوى عنانه لتعطي عليه إرادتها ، وتلقي إليه وحيا ، فأخذ عنها ما أملت ، وكتب من فصوله صحفاً ملائمة بالجهاد ، والفضائل ، والأدب ، والفن ، والسياسة ؛ ولا يزال الإسلام إلى اليوم — على الرغم مما أصاب بعض ذويه من هوان — مصدر الخير والسعادة ، وموئل البشرية حين تموزها الهداية ، ومعهداً لدراسات خطيرة تلقى أمام رواد الحضارة المثالية ضوءاً يرحى أن يتم به على العالم ما يبنى من رشاد وسلام .

ولم تقف العناية بالسيرة عند العرب وحدهم ، أو المسلمين فقط ،

يتفقون جميعاً في النية المحمودة بسيرة الرسول ، وجعلها في العصر الحديث موضوعاً خليقاً بالدرس وبذل الجهود في إذاعته بين الناس بأسلوب جديد يقربه إليهم ومحبيه إلى نفوسهم ، وهذا وحده غرض نبيل يستحق التقدير . كذلك سلكوا مسالك واضحة ممتازة وإن كانت متغايرة ، ولكل مذهب حدود ذومالم التزامها صاحبه ليس فيه هذا الاضطراب القديم الذي كان يجمع أشتاتاً من القصص ، والتقرير والوصف والرواية ونحوها ، وإنما هو مذهب علمي أو فني متناسق الأجزاء ، منظم العناصر ، فيه فقه للأشياء وفهم لها بروح قديمة أو حديثة أو بهما جميعاً . ومع ذلك فهم مختلفون في أشياء كثيرة .

يمتاز هيكل بالنهج العلمي الذي رسمه فيما كتب ، فكان مذهبه مذهب العالم المحقق ، إذ قسم موضوعه إلى فصول متواصلة متلاحقة كما كانت حياة الرسول عليه السلام منتظمة في هذه الفصول أو الأقسام التاريخية ، ولا أقول إن هذا النهج كله من اختراعه فلقد سبق إليه ، ولكنه آثره وهذب منه ، وهذه الخطة نفسها اقتضت مؤلف — حياة محمد — أن يكون مستقصياً استقصاء الباحث فليس له اختيار ما يجب وترك ما لا يهوى ، لأنه يعالج موضوعاً من عمل التاريخ ، عليه أن يعرضه كما حدث دون أن يخلع عليه من نفسه إلا ما شاء الخيال التاريخي الذي يربط المفكك ، ويصل المنقطع ، ثم هذا النقد الذي يظهر في تفسير كثير من المسائل بمقياس إسلامي علمي بعد ما كانت أشبه بالسميات تصديق ولا تمل... وفي مناقشته آراء المستشرقين الذين تجافوا فيما كتبوا عن روح الدين وطبيعته ، وبعيدوا عن عصر الرسالة وينشأ فلم يوفقوا فيما يتصورون . وصاحب (حياة محمد) بعد ذلك مسلم حذب على الدين غيور ، أشرب روح الإسلام ، وألم بكثير من أمراره فظهرت على كتابه أعراض الحية ، حمية من لا يسمح لأحد بنمز دينه أو النيل منه ، وذلك كله في أسلوب منطقي واضح هو أسلوب العلماء . ولكن طه حين سلك سبيلاً أخرى هي سبيل الأديب حقاً ، فلم يشأ في الظاهر أن يتقيد بمنهج علمي ، وإنما كان قصاصاً ، ترك هذا العصر الذي نمش فيه ، وانتقل بخياله الخصب إلى الجاهلية وصدر الإسلام وعاش مع تاسمها يفهم بمقوله ، ويحسن إحساسهم ، ويأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون ، وبذلك استطاع — ماوصمه الجهد — أن يقص علينا الحوادث بروحها وفي جوهرها ، وأن يفسر المسائل كما كانت

هؤلاء تقليداً من التقاليد يعمد إليه الكتاب تبعداً أو تأديباً كما فعل كتاب القامات في عصور التاريخ الأدبي المتوالية ، فكانت السيرة الحلبية ، والسيرة الشامية . ولم تخل كتب التاريخ العام — كالطبرى وابن الأثير — من تخصيص بعض أجزائها لسيرة الرسول إذ كانت تشغل وحدها فترة واسعة ، خصبة ، بعيدة الأثر فيما أعقبها من دول وأحداث .

وهذه المؤلفات القديمة لم تكن بالطبع خاضعة لهذه المناهج العلمية الحديثة ، فكانت مجموعة من أحاديث الرسول ، وأخبار الجاهلية وأساطير القدماء ، وأشعار الناحلين ومبالات الراوي ، دون عنابة بالنقد والتفسير أو التفسير وحسن التأليف . ولكنها كانت مؤلفة بروح هذه العصور السابقة ، وبوجهة النظر التي كانت — في الغالب — مقياس الصحابة والتابعين حين يذكرون الرسول الكريم ويفسرون أعماله وآثاره .

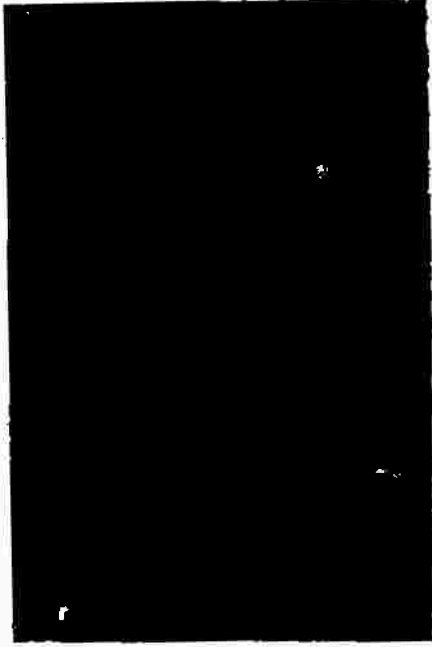
أما كتاب الفرنجة فقد رأينا مستشرقهم يتهافون على هذا الموضوع ، ويسلكون فيه هذه المناهج العلمية التي قد تنفد من ناحية الشكل والنظام ، ولكنهم بعد ذلك كانوا فريقين : فريقاً اتخذ السيرة مجالاً للتصعب على الإسلام فكان من المبشرين المخاطبين ، وفريقاً حاول الإنصاف ووقف عند الأصول العلمية الجافة ففقد هذه الروح أو الجو الذي كانت تجري حوادث السيرة في ظلاله ، فتعسر عليه تفسير أشياء كثيرة كان من السهل عليه إدراكها لو أنه كسب هذه الروح وعاش بخياله في عصور النبوة الأولى . نذكر من آثار المستشرقين حياة محمد لإرفنج ، وأخرى لوليام مور ، وثالثة لمرجليوث ، ولا ينسى التاريخ هذا الفصل البديع الذي كتبه كارليل تحت عنوان (البطل في صورة نبي) إذ دل على تفهم عام لهذه الروح التي كانت تشيع في بلاد الرسالة قديماً على أن الهنود لم يقصروا في هذه الناحية فكتبوا باللغة الإنجليزية في السيرة رأساً مثل النبي لمولانا محمد علي ، وفيما يتصل بها مثل روح الإسلام لسيد أمير علي ، ولغير الهنود في مصر وفي العالم الإسلامي آثار في السيرة لم تخل من فائدة

— ٣ —

ولكننا نختار من هؤلاء المعاصرين ثلاثة تقف عندهم وقفة قصيرة لا لشيء إلا لأنهم نهجوا في كتابة السيرة مناهج طريفة من ناحية ، ومتغايرة من ناحية أخرى : محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم

حَالَةُ الْعَرَبِ الْجَمَلِيَّةِ

فِي عَصْرِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
لِلدَّكْتُورِ جَسَنَ إِبْرَاهِيمَ جَسَنَ
أستاذ التاريخ الأسطوري بكلية الآداب



كان لاختلاط

العرب والروم
وغيرهم من الأمم
الأخرى أثر كبير
في تغيير عاداتهم
وحياتهم الاجتماعية
وبخاصة في عهد
الأمويين فقد تأثر
معاوية بن أبي سفيان
بنظم الحكم التي
أدخلها الروم في
بلاد الشام وابتكر

ابتكارات لم يسبقه إليها أحد ، فهو أول من اتخذ الحشم وأقام
الحجاب على بابهِ ووضع المقصورة التي يصلُ الخليفة بها في الجامع
منفرداً عن الناس وذلك لخوفه مما جرى لملى رضى الله عنه
وكان من أقدم واجبات الخليفة أن يؤم الناس في صلاة
الجمعة والصلوات الخمس . وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون
وبعض خلفاء بني أمية . وكان الخليفة في العهد الأموي يحضر إلى
المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر وبرق
النبر لإلقاء خطبة الجمعة ويده الخاتم والمعا ، وهما شارفاً الملك
وقد تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأسيهتهم ، وكان الخليفة
يجلس في صالة الاستقبال الكبرى وعلى عيْنه أسراء البيت المالِك
وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاط ثم يمثل بين يديه رسل
الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم

تفسر حينذاك ، فنقل إلينا هذا الماضي أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة .
وفن القصص لا يقتضى صاحبه استقصاء ولا تقدماً علفياً دائماً ،
ولا تحقيقاً وتفصيلاً ، فآثر أهم الأمور التي يرى فيها روعة
قصصية لأنها كانت رائعة إبان حدوثها أو فيما شعر وتخيّل صاحب
« على هامش السيرة » ... ثم تناولها واصفاً وحاكياً لم يترك
جانباً منها إلا أضاءه وأكمل منه ما ذلت الرواة . وليس من شك
في أن ذلك قد عرض بأسلوب جميل هو أسلوب القصص الممتاز
الجامع بين التحليل النفسي للأشخاص ، والإحاطة التامة بما
يمرض له من مواقف

أما توفيق الحكيم ، فقد توسط الاثنين ، وجمع بين ميزتي
العالم والأديب الممثل ، فكانت سيرته أخف شيء على النفوس .
استشار المراجع القديمة ، ووقف عند ما رسمت دون أن يستعين
الخيال إلا قليلاً ؛ وقد ألم بأطراف موضوعه ، وقسمه فأحسن
التقسيم ، ثم اختار قضاياها وصفها وجعلها معالم واضحة خالصة من
براهين التحقيق العلمي ، وأسباب الفن القصصي ، فصارت قضايا
موجزة بآلة حاسمة ، ثم عرضها بهذا الأسلوب الحوارى أو التمثيلي
كما كان يتحدث الرسول وصحابته والمتصلون بسيرته قديماً إلا ما لم
يرد فيه نص . وكان توفيق الحكيم بعد ذلك حذراً محتاطاً لم يعس
الموضوع إلا بخفة وإن كان الأسلوب من تقسيمه وابتكاره

كان هؤلاء الكتاب ، إذا ، بين عالم محقق ، وأديب قاص ،
وفنى ممثل ، كل أخلص لهدفه ، ووصل منه إلى غاية بعيدة
وتستطيع أن تتيقن هذا الفرق في أسطر قليلة جداً ، فيما
كتب عن أول ما عمل محمد عليه السلام في تجارة خديجة ؛ فهيكلك
يقرر المسألة ويقول إن أبا طالب كان السفير بين ابن أخيه وبين
خديجة ؛ وطه حسين يقيم ذلك على ميل خديجة إلى محمد وإرسالها
دسباً إلى عمه تعرض عليه أن يكون ابن أخيه في تجارتها بأجر
مضاعف ؛ فيأتى توفيق الحكيم ، فيقتضب المسألة ، ويترك الباب
مفتوحاً للخيال .

والرجو ألا يقف العلماء عند ما كتب هيكلك ، وكفى ، وأن
يتم طه حسين : « على هامش سيرته » ... وأن يجيئنا العلماء :
هل تمثل سيرة الرسول على المسرح ثم رسم على الشاشة البيضاء ؟
« رمل الاسكندرية »
أحمد الشاب